المحاضرة 03 : ضبط المفاهيم الأساسية المرتبطة بالمنهجية في البحث العلمي د.عيدون الحامدي

تمهيد

تُعدّ مسألة ضبط المفاهيم المنهجية من الإشكالات المركزية التي تواجه الطالب والباحث المبتدئ في مجال العلوم الاجتماعية عموماً، والعلوم السياسية والعلاقات الدولية على وجه الخصوص. فكثيراً ما يقع الخلط بين مفاهيم علمية متقاربة في الظاهر لكنها مختلفة من حيث الوظيفة والدور المنهجي، مثل: المدخل، النموذج، النظرية، التصميم، المنهج، المتغيرات، ووحدات التحليل. إن عدم الحسم المفاهيمي بين هذه العناصر يؤدي إلى سوء فهم موضوع البحث، وإلى أخطاء منهجية قد تُفرغ العمل العلمي من قيمته التفسيرية والتحليلية.

أولاً: أمثلة تمهيدية لفهم طبيعة النظرية العلمية

قدّمت الفيزياء الحديثة نماذج ونظريات كبرى غيّرت جذرياً فهم الإنسان للكون، من أبرزها **نظرية الانفجار العظيم** التي تفسر نشأة الكون، و**نظرية التطور والانتخاب الطبيعي** التي تفسر تطور الكائنات الحية، و**النظرية النسبية العامة** لأينشتاين التي قلبت التصور الكلاسيكي للزمان والمكان، حيث لم يعد الزمن يُنظر إليه كعنصر مطلق، بل كعنصر نسبي مرتبط بالسرعة والكتلة، مع ثبات سرعة الضوء التي تقدر بحوالي **300ألف كلم/ثانية**.

كما جاءت **نظرية الكم** لماكس بلانك في بدايات القرن العشرين لمعالجة إشكاليات عجزت الفيزياء الكلاسيكية عن تفسيرها، خاصة ما يتعلق ببنية الذرة. فالتصور القديم كان يشبه الذرة بالمجموعة الشمسية (نواة في الوسط والإلكترونات تدور حولها)، غير أن الفيزياء الكمية كشفت عن طبيعة أكثر تعقيداً وغير حتمية لسلوك الجسيمات الدقيقة. على غرار العلوم الطبيعية، تطورت النظريات في العلاقات الدولية مثلا على غرار مجال نظريات التنظيم و التسير، لتفسير ظواهر معقدة مثل الأمن والسلم الدوليين، الحرب، التعاون، النظام الدولي، والهيمنة. فظهرت **النظريات الكلاسيكية** كالواقعية والليبرالية والماركسية، ثم تطورت إلى **نظريات جديدة** مثل النيوواقعية والنيوليبرالية، وصولاً إلى **البنائية** التي ركزت على دور الأفكار والهويات. وتتناول هذه النظريات وحدات التحليل المختلفة (الدولة، الفواعل من غير الدول، النظام الدولي)، ومستويات التحليل (الفردي، الدولتي، البنيوي).

ثانياً: القوانين والحقائق العلمية

1.الحقائق العلمية

الحقائق العلمية هي معارف ثبتت صحتها عبر تراكم طويل من التجارب، القياسات، الملاحظات، أو الحسابات العلمية، وتم التحقق منها في بيئات مختلفة وعلى يد فاعلين علميين متعددين. من أمثلتها في العلوم الطبيعية: سرعة الصوت (حوالي 1224 كلم/ساعة). سرعة الضوء (300 ألف كلم/ثانية). حقيقة أن المادة تتكون من ذرات تضم نواة وإلكترونات. وفي مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية، يمكن الحديث عن حقائق علمية من قبيل:وجود الدولة وفق نموذج **وستفاليا**، المنظمات الدولية، الأحلاف العسكرية، الدساتير، الحروب البينية، الإرهاب، الأزمات الاقتصادية، الأوبئة، والإشكالات البيئية والإيكولوجية.

.2القوانين العلمية

القانون العلمي هو تعميم يوضح العلاقة المنتظمة بين مجموعة من الحقائق، وغالباً ما يُصاغ في شكل رياضي، وتكون صلاحيته مشروطة بسياقات محددة. من أمثلته: قانون أينشتاين ($E = mc^2$) المشروط بثبات سرعة الضوء في الفراغ. قوانين نيوتن للحركة. قانون أرخميدس للطفو. قوانين كبلر لحركة الكواكب. قانون هابل لتمدد الكون. مبدأ اللايقين لهايزنبرغ في الفيزياء الكمية. وغيرها

ثالثاً: المدخل أو المقترب النظري

المدخل (Approach) هو الإطار الذي يحدد من خلاله الباحث زاوية النظر إلى الظاهرة المدروسة، ويُوجّه عملية انتقاء البيانات والمفاهيم وتنظيم البحث. لا يهدف المدخل إلى اكتشاف الظواهر أو قوانينها، بل إلى **تفسيرها تفسيراً جزئياً** من منظور معين فهي مثل المدخل الموصل او المؤدى الى مكان العمل او الدراسة في الجامعة او الظواهر السياسية. فإذا تم تفسير صنع القرار السياسي من زاوية اقتصادية، فإن المدخل يكون اقتصادياً، وإذا تم من زاوية اجتماعية أو ثقافية، يكون المدخل اجتماعياً أو ثقافياً، وهكذا. كما تمسى أيضا المداخل بالمقتربات لانها تقرب الباحث من ظاهرة محل البحث و تسهل عليه الولوج لدراستها بشكل اكثر دقة علمية.

رابعاً: النموذج(Model) : النموذج هو تمثيل مبسّط لظاهرة أو عملية معقدة، يهدف إلى تسهيل الفهم والتحليل عبر التركيز على العناصر الكلية وتجاهل بعض الجزئيات الثانوية. غالباً ما يُقدَّم النموذج في شكل بياني أو تصوري. في العلوم الطبيعية، يُعد نموذج **بور للذرة** مثالاً كلاسيكياً، حيث مثّل الذرة على غرار النظام الشمسي. وفي العلوم السياسية، نجد نماذج مثل نموذج **ديفيد إيستون** للنظام السياسي، ونماذج **كارل دويتش**، وكذلك نماذج **سنايدر وروزنو** في تحليل السياسة الخارجية.

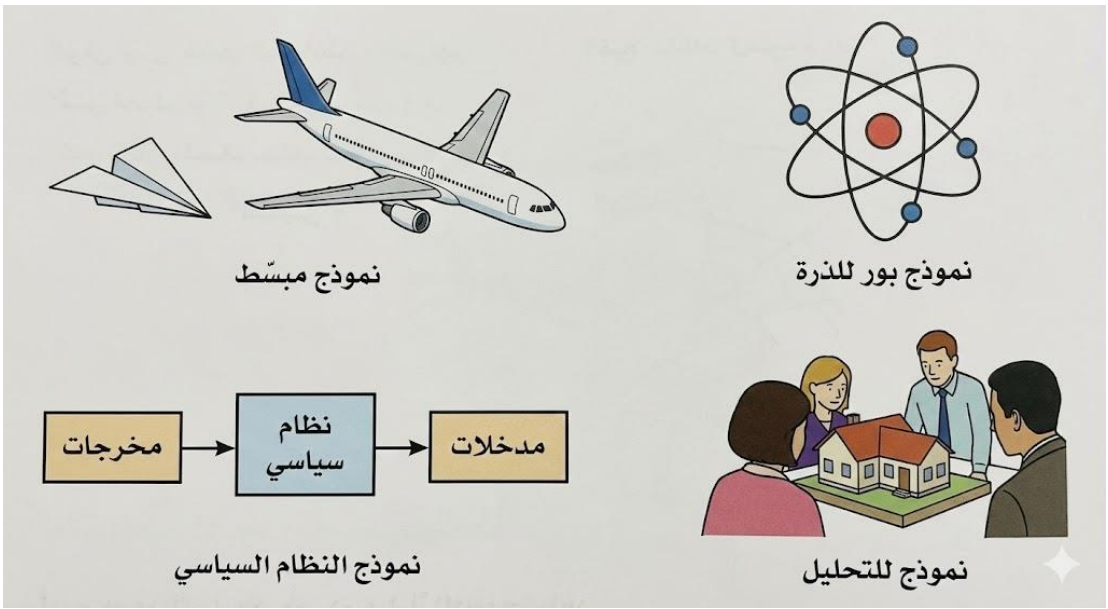

خامساً: ماهية النظرية العلمية

يخطئ الكثيرون حين يختزلون النظرية في كونها مجرد رأي أو فرضية شخصية. فالنظرية في معناها العلمي هي **إطار معرفي تركيبي متكامل** يضم الحقائق، القوانين، المفاهيم، المداخل، المتغيرات، وحدات التحليل، والنماذج، ويقدم تفسيراً منظماً لظاهرة معينة. تلعب النظرية دوراً مركزياً في تحويل الحقائق إلى بيانات، وتنظيم المعلومات، وانتقاء ما هو مهم منها، واستخدامها في الوصف، التحليل، التفسير، والتنبؤ. تعريفات مختصرة للنظرية:

- **كينيث والتز** يرى أن النظرية إما مجموعة قوانين تفسر سلوك ظاهرة ما، أو إطار يفسر هذه القوانين ذاتها.
- **دورتي وبالستغراف** يعتبران النظرية تنظيماً للمعلومات يسمح بتقديم إجابات عامة عن الظواهر المدروسة.
- **إسماعيل صبري مقلد** يعرّف النظرية بأنها منظومة مترابطة من المفاهيم والفرضيات والقوانين القادرة على التفسير والتنبؤ.

محاضرة04 :الطريقة العلمية وتصنيفات البحث العلمي

الطريقة العلمية : بين العلم التخميني والعلم المنهج

تقوم الطريقة العلمية الحديثة على التمييز الجوهري بين نمطين من المعرفة: **العلم التخميني والعلم المنهج**.

فالعلم التخميني هو نمط تفسير يربط تحصيل المعرفة وكشف الظواهر بقوى غيبية أو روحية أو لاهوتية، ويُرجِع الأحداث والنتائج إلى تدخل الآلهة، أو السحر، أو الشعوذة، أو قوى غير قابلة للتحقق العقلي أو التجريبي. في هذا النمط من التفكير، لا يُنظر إلى العالم بوصفه نسقًا منظمًا تحكمه قوانين، بل باعتباره مجالًا للفعل الغيبي المباشر.

أما العلم المنهج، فيقوم على الاعتقاد بأن العالم **كون منظم**، وأنه لا توجد نتيجة دون سبب، سواء كان هذا السبب معلومًا أو مستورًا لم يُكتشف بعد. ومن ثمّ، فإن تفسير الظواهر لا يتم عبر الإحالة إلى الغيب، بل عبر **التفسير الطبيعي والتحقق المنظم** القائم على الملاحظة، والتجريب، والتحليل العقلي.

مثال بسيط: كان يُفسَّر مرض الصَّرع في المجتمعات التقليدية على أنه مسٌّ من الجن أو العفاريت، بينما يفسره العلم الحديث على أنه اختلال عصبي ناتج عن اضطراب الإشارات الكهربائية في خلايا الدماغ. وبالمثل، كانت بعض الاضطرابات النفسية كالفصام تُفسَّر تفسيرًا روحانيًا، في حين يُظهر العلم أنها حالات مرضية لها أسباب بيولوجية ونفسية واجتماعية معقدة.

في التاريخ السياسي، كان تبرير السلطة يتم باسم الدين أو التفويض الإلهي، كما في العصور الوسطى حيث استندت الشرعية إلى سلطة البابا أو "الحق الإلهي للملوك". ومع تطور الفكر السياسي الحديث، انتقل أساس الشرعية إلى **سلطة الشعب والمشاركة السياسية**، فأصبحت السلطة تُقاس بمدى تمتعها بالشرعية والمشروعية معًا.

وهنا نميز بين:

- سلطة شرعية وتتمتع بالمشروعية (الدولة الدستورية المنتخبة).
- سلطة شرعية لكنها لا تتمتع بالمشروعية (أنظمة قانونية فاقدة للقبول الشعبي).
- سلطة غير شرعية لكنها تتمتع بالمشروعية (السلطة الثورية في مراحلها الأولى).
- سلطة غير شرعية ولا تتمتع بالمشروعية (الحكومات الانقلابية).

هذا التحول في تفسير السلطة هو مثال واضح على الانتقال من التفسير التخميني إلى التفسير العلمي-العقلاني للظواهر السياسية.

.2رواد الطريقة العلمية الحديثة

يُعد **فرانسيس بيكون** أبَ العلم الحديث والبحث العلمي القائم على التجريب والاستقصاء، وقد لخّص مشروعه المعرفي في أمرين أساسيين:

1. إقامة العلم على الاستقراء بدل القياس الصوري المجرد.
2. تحويل العلم إلى منفعة عملية تخدم الإنسان وتحرره من الجهل والعوز.

ثم جاء **ديكارت** بمنهجه الرياضي ومنهجه الشكي، القائم على الشك المنهجي للوصول إلى اليقين، وهو ما يلتقي – في بعده المعرفي – مع تراث إسلامي عميق عند **أبي حامد الغزالي** في الشك المنهجي، و**ابن الهيثم** في المنهج التجريبي، و**الكندي** في التأسيس العقلي للمعرفة.

وهكذا، فإن المنهج العلمي الحديث لم يولد من فراغ، بل هو نتاج تراكم حضاري وفلسفي طويل.

.3تصنيفات البحوث العلمية على أساس الأهداف

يمكن تصنيف البحوث العلمية انطلاقًا من **هدف البحث** إلى ثلاثة أصناف رئيسية:

أولًا: بحوث تحصيل المعلومات

وتشمل البحوث الاستكشافية والوصفية، وتهدف إلى الوصول إلى المجهول وتعلّم الجديد.

مثال: دراسة تهدف إلى وصف أنماط استخدام الطلبة لوسائل التواصل الاجتماعي.

دراسة استكشافية حول طبيعة الفاعلين الجدد في السياسة الدولية (الشركات العابرة للقوميات، المنظمات غير الحكومية). وغالبًا ما تبدأ هذه الدراسات بأسئلة من قبيل: ***هل؟ ما؟ ماذا؟ بماذا؟***

ثانيًا: بحوث تكوين المعارف

وتشمل الدراسات التفسيرية والتحليلية، وتهدف إلى التحقق من ظاهرة معلومة وفهم أسبابها وآلياتها.

مثال:لماذا ترتفع نسبة البطالة في فئة عمرية معينة؟

لماذا تفشل بعض الدول في تحقيق الانتقال الديمقراطي رغم توفر الموارد الاقتصادية؟

وتُستخدم في هذا النوع من الدراسات أسئلة مثل: ***لماذا؟ كيف؟***

ثالثًا: بحوث كسب النتائج العملية والوصول إلى الحقائق

وتُعرف بالدراسات الكاملة أو التركيبية، وتهدف إلى تقديم حلول عملية ومركبة لمشكلات معقدة.

مثال:اقتراح سياسات تعليمية للحد من التسرب المدرسي. بناء نماذج تنموية شاملة لمعالجة الفقر، اللامساواة، واللاعدالة الاجتماعية، بما يحرر الإنسان ماديًا من الجوع والألم، ومعنويًا من الجهل والتعصب والسذاجة.

وتُطرح هنا أسئلة من قبيل: *إلى أي مدى؟* -أسئلة قياسية- إضافة إلى :***لماذا؟ وكيف؟***

خلاصة : يمكن القول إن البحث العلمي ليس مجرد تجميع معلومات، بل هو **مسار ارتقائي للوعي الإنساني**، ينتقل فيه الإنسان من الوصف إلى الفهم، ومن الفهم إلى التفسير، ومن التفسير إلى التغيير.

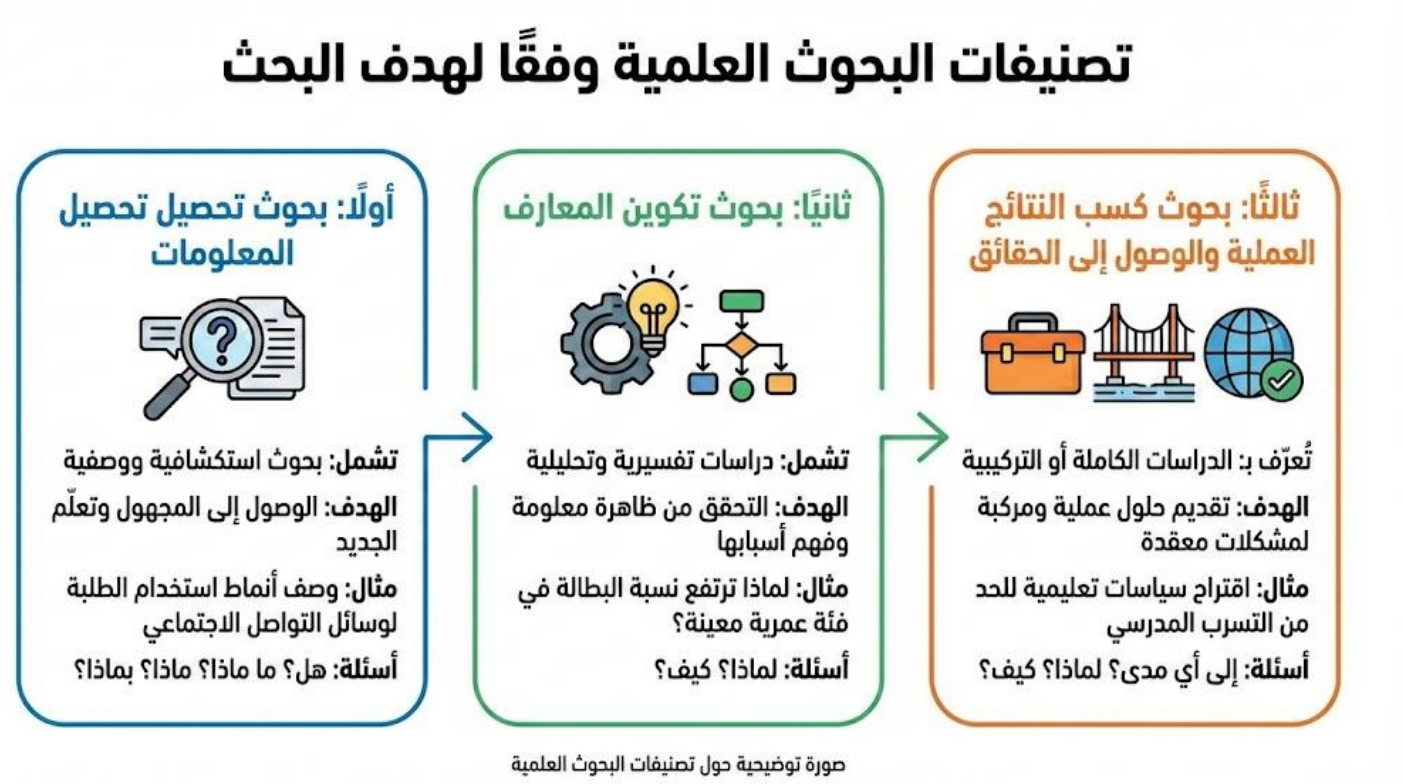

صورة توضيحية حول تصنيفات البحوث العلمية